# الفصل الأول

## مكـــة

بعد ذلك، وجد أنه من المستحيل تقريبًا أن يصف التجربة التى جعلته يهبط فى اضطراب من الجبل إلى زوجته خديجة، فقد بدا له أن وجود طاغ انبعث داخل الكهف الذى كان يأوى إليه، واحتضنه بعناق شديد كأنه يعتصر أنفاسه. وفى هذا الرعب، لم يظن محمد (ﷺ) إلا أن أحد الجن هاجمه، تلك الأرواح النارية فى بلاد العرب، والتى كانت كثيرًا ما تضلل المسافرين عن الطريق الصواب، كما كانت الجن أيضًا تلهم الشعراء والعرافين فى الجزيرة العربية.

ولقد وصف أحد الشعراء كيف يباغته جنى الشعر فجأة بدون مقدمات، فيلقى به أرضًا، ويخرج أبيات الشعر من فمه. لذلك عندما سمع محمد (ﷺ) الأمر المقتضب «اقرأ»، افترض فورًا أن أحد الجن تملكه، فأجابه: «ما أنا بقارئ»، ولكن مهاجمه اعتصره مرة أخرى حتى ظن أنه لن يستطيع تحمله، حينئذ سمع أول كلمات القرآن تخرج منسابة تلقائيًا من فمه[1].

لقد شاهد (ﷺ) هذه الرؤيا فى شهر رمضان قبل الهجرة بثلاثة عشر عامًا / ٦١٠م تقريبًا. وقد سماها القرآن فيما بعد «ليلة القدر»، لأنها جعلت منه رسول الله، الإله الأعلى فى الجزيرة العربية، ولكنه فى ذلك الوقت، لم يكن يدرك ما يحدث. كان فى الأربعين من عمره، رجل عائلة وتاجر محترم فى مكة، المدينة التجارية المزدهرة فى الحجاز. وقد كان يعرف - مثل معظم العرب - قصص نوح، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وعيسى (صلى الله عليهم وسلم)، وكان يعرف أن بعض الناس

يتوقعون الظهور الوشيك لنبى من العرب، ولكن لم يتوقع أن يعهد له بهذه المهمة. فى الواقع، كان مملوءاً باليأس وهو يهرب من الغار ويجرى لأسفل جبل حراء. كيف سمح الله أن يتملكه الجن؟ كان للجن نزوات، وكانت لهم سمعة رديئة، ولا يوثق بهم لأنهم كانوا سعداء بتضليل الناس. كان الوضع خطيراً فى مكة. لم تكن قبيلته تحتاج لقيادة خطيرة من الجن، لأنها كانت تحتاج لتدخل مباشر من الله، الذى كان له كنه بعيد فى الماضى، والذى اعتقد كثير من الناس أنه نفس الله الذى يعبده اليهود والمسيحيون.

لقد بلغت مكة مؤخراً نجاحًا مذهلاً، حيث أصبحت المدينة مركز تجارة دوليًا، وأصاب تجارها ومولوها ثراءً لم يحلموا به، فقد كان أسلافهم القريبون يعيشون حياة بائسة يائسة فى الصحارى العنيدة فى شمال الجزيرة العربية. كان نجاحهم غير عادى، لأن معظم العرب كانوا بدواً لا يستقرون فى المدن. عاش الناس على التجوال من مكان لآخر بحثًا عن الماء وأرض للرعى، فى الصحراء القاحلة. كان هناك القليل من الواحات الزراعية فى المرتفعات مثل الطائف، التى كانت تمد مكة بمعظم طعامها، ويثرب التى تبعد حوالى ٢٥٠ ميلاً شمالاً. كانت حياة الزراعة، ومن ثم الحضر المستقرة، مستحيلة فى سهول الصحراء الخالية من الماء، وتشبث البدو بحياتهم العجفاء عن طريق رعى الخراف والماعز، وتربية الجمال والخيول، وعاشوا فى مجموعات قبلية متشابكة، حياة كفاح قاسية وشرسة بسبب تنافس الكثير منهم على مصادر عيش قليلة، لذلك كانوا دائمًا جوعى وعلى حافة المجاعة، ولذلك نشبت بين القبائل حروب لا نهاية لها على الماء وأرض الرعى، وتبعًا لذلك كان الغزو ضروريًا للاقتصاد البدوى(*).

عادة ما كانت القبائل فى وقت الحاجة تغزو المناطق المجاورة على أمل سلب الجمال والماشية أو العبيد، وكانت حريصة على عدم قتل أحد لأن القتل قد يؤدى إلى الثأر.

(*) كان الغزو، واستلاب مال الغير، وأرضه، بل وحياته إذا لزم، ظاهرة بشرية لم تتوقف حتى اليوم، ويتفوق فى ذلك تاريخ الاستعمار الغربى منذ ما يُسمى الكشوف والنهضة الأوروبية فى نهاية القرن الخامس عشر، مروراً بقرون الاستعمار التقليدى - الثامن عشر إلى العشرين - وبالحربين المدمرتين فى القرن العشرين، والمعروفتين بالحربين العالميتين، إلى الغزو الذى تقوده أمريكا لأفغانستان والعراق، وقبيله الغزو اليهودى لفلسطين وللبلاد العربية. أما الجديد فى الأمر، خاصة فى الغزوات الاستعمارية الغربية الحديثة، فهو ادعاء أنها لنشر الحضارة والقيم الغربية تارة، وأنها للدفاع عن النفس تارة أخرى، مع ادعاء شرعية تلك الجرائم.

ولم يكن أحد يرى الغزو أمرًا يستحق الشجب. كان الغزو حقيقة من حقائق الحياة، ولم يكن وراءه البغض السياسى أو الشخصى، بل كان نوعًا من الرياضة القومية تمارس بمهارة، وفقًا لقواعد محددة بوضوح. كان وسيلة ضرورية فجة لإعادة توزيع الثروة فى منطقة لم يكن فيها الكفاية مما يحتاجه السكان.

وعلى الرغم من أن أهل مكة تركوا حياة البداوة، فإنهم ظلوا ينظرون للبدو على أنهم حراس للثقافة العربية الأصيلة. أرسل محمد (ﷺ) فى طفولته ليعيش فى الصحراء مع قبيلة مرضعته ليتشرب الحياة البدوية، وكان لهذا أثر عميق فى نفسه. لم يكن البدو مهتمين بالأديان التقليدية، ولم يكن عندهم أمل فى الحياة بعد الموت، وكانت ثقتهم قليلة فى آلهتهم، التى بدت عديمة الفائدة فى تحسين بيئتهم القاسية. كانت القبيلة ـ ليس الإله ـ القيمة الأعلى، فقد كان كل فرد يخضع احتياجاته ورغباته الشخصية لمصلحة المجموعة، ويقاتل للموت إذا لزم ليضمن بقاءها. لم يكن لدى العرب وقت للتخمين فى القوى الخارقة وما وراء الطبيعة، وكانوا يركزون على عالمهم الأرضى، كما لم يكن للخيال فائدة فى الصحارى الخالية من الشجر، إذ كانوا يحتاجون واقعية نفعية معتدلة. ولكنهم طوروا قواعد للشهامة، قدمت لهم الوظيفة الرئيسية للدين بأن جعلت لحياتهم معنى، وحفظتهم من الاستسلام لليأس فى ظروفهم الصعبة، وأطلقوا عليها المروءة. والمروءة تعنى الشجاعة، والصبر والجَلَد، وتشمل تكريسًا كاملاً للنفس للأخذ بالثأر من أى اعتداء يقع على المجموعة، ولحماية الضعفاء، ولقهر الأعداء للحفاظ على شرف القبيلة. كان على كل فرد أن يكون مستعدًا للدفاع عن عشيرته فور الحاجة لذلك، وأن يطيع قائده بدون سؤال. وفوق كل هذا، لابد أن يكون رجل القبيلة كريمًا ومستعدًا لأن يشاركه الآخرون ماشيته وطعامه. تستحيل الحياة فى الصحارى إذا ادخر أناس ثرواتهم بأنانية وتركوا الآخرين جوعى. والقبيلة الغنية اليوم قد تصبح معدمة غدًا، وإذا كنت بخيلاً فى أيامك الطيبة، فمن ذا الذى يساعدك فى أيامك الصعبة؟. استخرجت المروءة فضيلة من هذه الضرورة، فشجعت الكريم على ألا يهتم كثيرًا بالرفاهية المادية حتى لا يصاب بالقنوط عند حياة الحرمان. لم يكن البدوى النبيل حقًا يبالى بالغد، وكان يظهر بهداياه السخية وضيافته أنه يقدر أفراد عشيرته أكثر من أملاكه. كان دائما مستعدًا ليمنح كل ثروته ـ جمال وماشية وعبيد ـ للآخرين، وكان يمكن أن يبدد ثروته فى ليلة واحدة بعمل وليمة فخمة لأصدقائه وحلفائه. ولكن سخاء الكريم يمكن أن يدمره شخصيًا عندما يسعى وراء الشهرة والمظاهر، فيقود أسرته للفقر فى مقابل أن يظهر نبله وأصالته، ويتحول بذلك الكرم إلى أنانية.

حثت المروءة على المثالية، ولكن بنهاية القرن الميلادى السادس، تآكلت بطريقة مفجعة، حين زكت العصبية القبلية من الشجاعة والتضحية بالنفس، ولكن فقط فى محيط القبيلة. ولم يكن هناك مفهوم عام لحقوق الإنسان، إذ شعر البدوى بمسئوليته فقط تجاه أقربائه وحلفائه، ولم يكن يهتم قط بالآخرين، وكان يعتبرهم عديمى القيمة ومستباحين، وإذا كان عليه أن يقتل الآخرين لمصلحة قبيلته، فلم يكن يعانى ألمًا نفسيًا، ولم يكن ليضيع وقته فى التجريدات الفلسفية أو الاعتبارات الأخلاقية. مثلت القبيلة القدسية الأعلى، ولذلك كان يحامى عنها سواء كانت على حق أو باطل. وقد أنشد أحد الشعراء:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[٢]

أو كما جاء فى الحديث(*): «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[٣].

كانت لكل قبيلة أعراف المروءة الخاصة بها، والتى اعتقد العرب أنهم ورثوها عن أسلافهم الأوائل جيلاً بعد جيل، كما ورثوا صفاتهم البدنية والأخلاقية الأخرى، وسموا أمجادهم القبلية القديمة أحسابهم[٤]. قدر العرب أسلافهم واعتبروهم المرجع الأعلى، فحفظوا تراثهم وتقاليدهم، وعدوها مقدسة ولا يجوز مخالفتها، وكان لكل قبيلة سنتها التى ورثتها وتحافظ عليها بتقليدها، وأى انحراف عنها يعد شرًا كبيرًا. لم يبجلوا الممارسات القديمة بسبب نبلها أو معدنها بقدر ما كان ذلك بسبب قدمها ونقلها عن الأسلاف.

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها

لا يطبعون ولا يبور فعالهم إذ لا يميل مع الهوى

[لبيد بن ربيعة ـ المعلقة][٥]

لم يكن للبدو أن يخاطروا بالتجارب الجديدة، فتجاهل الشريعة، الكلمة التى تعنى الطريق إلى الماء، التى عاش بها أسلافهم من قديم الزمان يُعد جرمًا وعملاً غير مسئول. تعلم العربى أن يعيش متبعًا مجموعة من القواعد التى ثبت نجاحها بتجارب أسلافه. ولكن مثل هذا القبول الأعمى للتقاليد، يؤدى إلى مغالاة فى العصبية [الشوڤينية] القبلية، حيث تصبح تقاليد القبيلة هى الأفضل، ولا يمكن مراجعتها أو

(*) تكملة الحديث: أن الصحابة سألوا النبى ﷺ كيف ينصرون أخاهم ظالمًا؟ فأجاب «بأن تكف يده عن الظلم» ـ رواه البخارى ومسلم والترمذى.

التفكير فى تقاليد أخرى. ويتم الحفاظ على شرف القبلية باتباع تقاليدها ورفض الخضوع لأى مراجع أخرى، بشرية أو إلهية. وعلى الكريم أن يكون فخوراً ومعتداً بنفسه، معتمداً عليها، ومستقلاً بأنفة عن الآخرين. ولم يكن التكبر خطيئة، وإنما علامة على النبل، بينما كان التواضع علامة على تواضع الحسب والنسب، وكان مواليد الطبقات الدنيا مؤهلين ليصبحوا عبيداً. لم يكن الكريم الحقيقى ليخضع لأى شخص، وقال الشاعر:

وأيـام لنـا غـر طـوال عصينا الملك فيهـا أن ندينا

وسيد معشر قد توجـوه بتاج الملك يحمى المحجرينا[٦]

بل كان الكريم يحافظ على استغنائه واعتداده بنفسه، حتى أمام الآلهة، فما كان هناك إله أسمى من النبيل الحقيقى.

فى تلك الصحارى، احتاجت القبائل إلى رجال يرفضون الخنوع لقسوتها، ويثقون فى قدراتهم على احتمالها! ولكن كان لذلك الاستغناء عيوبه، فما كان أسهل من تحوله إلى تهور وإفراط، ومن ثم يصبح البدوى متطرفًا[٧]، وبسبب ذلك الشموخ فى الإحساس بالشرف، كان رد فعله عنيفًا على كل ما يراه تهديداً له. لم يكن يتصرف بأسلوب رد الفعل، بل كان يرى الشجاعة الحقيقية فى شن الهجمات الاستباقية، فكما قال الشاعر زهير بن أبى سلمة (نحو ٩١ق. هـ ـ ٦هـ):

لدى أسد شـاكى السلاح مقذف لـه لبـد أظـفـاره لـم تقـلـم

جـرىء متـى يظـلـم يعاقب بظلمه سريعًا وإلا يبد بالظلم يظـلـم

[زهير بن أبى سلمة]. [٨]

كانت تلك الشجاعة التى يمتدحها الشاعر، حماسة لا يمكن ولا يجب كبحها، وإذا وقع الظلم على أحد أفراد القبيلة، وجب على الكريم المتعطش للثأر الانتقام بتعذيب الجانى[٩]، لقد كانت تلك نظرة مأساوية. أراد البدو تمجيد كفاحهم، ولكن كانت حياتهم عابسة ولا أمل فى تحسينها، وكانوا يرون كل الأحداث مكتوبة عليهم بالدهر، والذى قدر عليهم كل معاناتهم وحيواتهم مسبقًا.

لا شيء يدوم، حتى المقاتلون المنتصرون يموتون ويطويهم النسيان، فهناك عبثية متأصلة فى هذه الحياة. كان العلاج الوحيد لليأس التمتع بملذات الدنيا، خاصة السلوان بشرب النبيذ.

حاول الكثير من البدو الإفلات من حياتهم البدوية وبناء حياة حضرية مستقرة، ولكن لم يحققوا النجاح بسبب ندرة الماء والأراضى الصالحة للزرعة والجفاف [١٠]. لم يكن بوسع قبيلة أن تبنى مستعمرة إلا إذا تراكمت لديها ثروة كبيرة - الأمر شبه المستحيل - أو أن تستقر فى واحة ذات مياه وأراض قابلة للزراعة، كما فعلت ثقيف فى الطائف، وكان البديل الآخر أن تعمل القبيلة كوسيط لإحدى حضارات المنطقة الثرية، كما فعل الغساسنة عندما استقروا فى الشتاء على حدود الإمبراطورية البيزنطية وعملوا كوكلاء لها، وتحولوا إلى المسيحية، فشكلوا حاجزًا يحمى البيزنطيين من الفرس.

ولكن لاحت فرصة فى القرن السادس بتطور ثورى فى وسائل النقل. فقد اخترع البدو الـخُرْج الذى مكّن الجمال من نقل البضائع الكثيرة، وصار تجار الهند وشرق إفريقيا واليمن والبحرين يستخدمون الجمال التى تستطيع عبور الصحراء العربية بالسير فيها أيامًا بدون ماء، وبلا مشقة، فتنقل إلى الشام والإمبراطورية البيزنطية، البخور والتوابل والعاج والحبوب واللؤلؤ والأخشاب والأقمشة والأدوية، فى قوافل تأخذ مسارًا مباشرًا فى الجزيرة العربية، يقودها العرب من عين ماء إلى الأخرى ويحمونها.

وأصبحت مكة محطة فى منتصف الحجاز لتلك القوافل التجارية. وبرغم أنها كانت على أرض صخرية غير قابلة للزراعة، فقد أمكن الاستقرار فيها والعيش على نبع زمزم، وربما أدى الاكتشاف - الذى ظهر معجزًا - لذلك النبع المائى فى الأرض القاحلة إلى إضفاء القداسة عليه منذ زمن قديم سابق على نشأة مكة كمدينة. لقد جذب ماء زمزم الحجاج من كل أنحاء الجزيرة العربية، والذين ربما جذبتهم الكعبة، ذلك البناء القديم ذو المنافع المقدسة لـ «طائفة» زمزم(*). تعاقبت القبائل على رعاية الحرم خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، فكانت جرهم، ثم خزاعة، وأخيرًا قريش فى بداية القرن السادس الميلادى، والتى كانت أول من أحاطت الكعبة بسياج من المبانى، وأخرجت من سبقوها.

(*) لم نجد أصل فى المراجع العربية عن طائفة زمزم أو عبادة زمزم «Zamzam Cult».

أسس قصى بن كلاب قبيلة قريش، بأن جمع عشائر ـ كانت فى السابق متحاربة ـ وكانت ترتبط عن بعد بصلات دم ونسب، مع بداية ظهور مكة كمركز للتجارات البعيدة، وربما جاء اسم قريش من فعل التقرش، أى الجمع أو الاكتساب[١١]، وبالتباين عن جرهم وخزاعة، اللتين لم تستطيعا التخلى عن البداوة، راكمت قريش رأس المال الذى كفل أسلوب حياة حضريًا مستقرًا، ونجحت فى تأمين احتكارها لتجارة الشمال والجنوب، وأن تقدم خدماتها للقوافل الأجنبية، وأن تسيطر على الأنشطة التجارية التى أنعشتها التجارة الدولية داخل الجزيرة العربية. بدأت قبائل البدو فى التجارة بين بعضها البعض منذ أوائل القرن السادس[١٢]. فكانت تعقد أسواقًا متتابعة فى أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية، تدور مع عقارب الساعة، وتحشد التجار بتجاراتهم المختلفة، يبدأ السوق الأول فى البحرين، أكثف المناطق سكانًا، ثم عمان، فحضرموت، واليمن، وتنتهى الدائرة بخمسة أسواق متتابعة فى مكة وما حولها، آخرها سوق عكاظ، قبيل شهر الحج مباشرة.

بدأت قريش فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى فى إرسال قوافلها التجارية إلى الشام واليمن، وبالتدريج، أسست تجارتها المستقلة. ولكن برغم ذلك النجاح، عرفت قريش أنها عرضة للخطر، فهى لا تستطيع تأمين طعامها لعدم قابلية أرضها للزراعة، وهى تعتمد كلية على شراء طعامها بمبادلاتها التجارية، فإذا فشلت تجارتها فلن تجد ما تأكله، ولذلك ارتبط كل قرشى بالتجارة، من مقرض ـ كبنوك اليوم ـ إلى ممول، إلى تاجر. احتفظ العرب فى الواحات الزراعية فى الجزيرة العربية بروح البداوة، لأنها يمكن أن تتوافق مع الزراعة، أما قريش، فقد اكتسبت روح التجارة ومزاجها الخاص، مما أفقدها الكثير من القيم التقليدية للمروءة. فعلى سبيل المثال، أصبح عليها أن تعيش فى سلام؛ لأن حالة الحرب المستوطنة بين القبائل فى الصحارى لا تسمح بازدهار التجارة. كان على مكة أن تصبح سوقًا آمنًا يأتى إليه التجار من مختلف القبائل، ويجتمعون فى سلام وحرية بدون الخوف من التعرض لهجمات السلب والنهب. لذلك، رفضت قريش بعزم وثبات التورط فى حروب وأحلاف القبائل، وحافظت على الحياد بينها. قبل قيام قريش برعاية الكعبة، قامت معارك دموية بين القبائل المتنافسة على ذلك الشرف، إلى أن نجحت قريش بمهارة فى أن تؤسس حرمًا آمنًا يحيط بالكعبة، نصف قطره ٢٠ ميلا[١٣]، وعقدت قريش اتفاقات

مع البدو، منعتهم من مهاجمة القوافل التجارية فى مواسم الحج والعمرة، ومواسم الأسواق، فى مقابل تعويضات للقبائل على قيامها - بدلاً من هجمات السلب والنهب - بإرشاد وحماية تلك القوافل.

بذلك ارتبطت التجارة بالدين فى مكة. كان موسم الحج ذروة دورة السوق، وهيأت قريش للحجاج الدين والحرم، فأصبحت مركزًا روحيًا للقبائل العربية. كان لكل قبيلة إلهها الذى يجسده تمثال حجرى، وجمعت قريش أصنام القبائل فى الحرم، حتى يصبح بمقدور كل قبيلة أن تعبد إلهها فى الكعبة. لذلك أصبحت حرمة الكعبة أساسية فى بقاء قريش، وفهم منافسو قريش ذلك. ولجذب الحجاج والتجار بعيدًا عن قريش، بنى حاكم إثيوبيا واليمن حرمًا منافسًا، وقاد جيشًا فى عام ٥٤٧م إلى مكة ليثبت أنها ليست بمأمن من الحرب. ولكن يُقال إن فيل الحرب الذى سار به رفض أن يهاجم الحرم، وعاد الإثيوبيون من حيث أتوا، متأثرين بالمعجزة التى عاينوها، وصار عام الفيل رمزًا على حرمة مكة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾
[سورة الفيل: ١ - ٥][١٤].

لم يكن الدين مجرد مظهر فارغ للتقوى، فقد أثرت طقوسه الحجاج بتجربة عميقة، إذ إنه بعد عكاظ السوق الأخيرة، يصل الحجاج مكة ولديهم إحساس بالرضا من إنجازهم مفعم بالإثارة. تهيئ قريش الراحة للقوافل، للتجار وخدمهم وجمالهم، وبعد أن يدفعوا مقابلاً زهيدًا كرسوم للحرم، يبدءون طقوس الحج، ويرددون بعض الأدعية - فى طرقات مكة - لإعلام الآلهة بوصولهم، ومثولهم أمام آلهتهم فى مكة يجعلهم يحسون بأنهم فى أوطانهم الأصلية. يطوفون بالكعبة - التى يحيط بها ٣٦٠ صنمًا - سبع مرات، ذلك التقليد الذى ربما كان منشؤه طلب أمطار الشتاء من الآلهة(*)، ثم يسعون بين الصفا والمروة شرق الكعبة، ثم ينتقلون إلى المزدلفة، موطن إله الرعد(**)، ويبيتون هناك بالقرب من جبل

(*) يتغير زمن موسم الحج سنويًا بالنسبة للفصول الأربعة، فيأتى فى الشتاء ويأتى فى الصيف، وفى الخريف وفى الربيع.

(**) لم تنقل إلينا المصادر العربية أى خبر يفيد أن المزدلفة كانت موطن إله الرعد، وربما اعتمدت المؤلفة على ما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية (ليدن، هولندا)، التى لم يذكر واضعوها المستشرقون مصدر هذا الخبر من التراث العربى القديم.

عرفة، ١٦ ميلاً من مكة، ثم يلقون الجمرات فى منى، ويختمون الحج بنحر إناث جمالهم، أغلى ما يملكون دليلاً على ثرائهم، ومن ثم على قدرهم.

الطواف حول الكعبة سبع مرات فى اتجاه عكس دوران عقارب الساعة هو أشهر المناسك، صار الطواف طقسًا مرغوبًا يؤديه بإخلاص على مدار العام أهل مكة وضيوفها، واكتسب الحرم المكى أهمية سلفية مثل الأضرحة الأخرى فى العالم القديم[١٥]. تمثل الكعبة بأضلاعها الأربع الجهات الأصلية الأربعة، ومن ثم العالم، وفى ضلعها الشرقى، يمثل الحجر الأسود، الذى أصله نيزك سقط من السماء، الارتباط بين السماء والأرض، وطواف الحجاج حول الكعبة يتبع دوران الأرض حول محورها، مما يجعلهم فى توافق مع النظام الكونى. فالدائرة رمز للشمولية، والحركة على مسار دائرى، حيث يعود المرء لنقطة بدايته، يبث إحساسًا بالمعاودة والانتظام. كذلك يتبصر الحجاج بدورانهم حول الكعبة مركزهم وميولهم الحقيقية، ويفرغ دورانهم الوئيد حولها عقولهم من الأفكار الشاردة، ويهيئ لهم حالة من التأمل والتدبر.

جعلت الطقوس - التى تم إصلاحها - من مكة مركزًا للعرب، فبينما كان الحجاج الآخرون يضطرون لمغادرة مواطنهم والارتحال لبلاد أخرى، لم يضطر العرب لمغادرة جزيرتهم، مما مثّل قانونًا فى حد ذاته. دعّم كل ذلك من مركزية مكة للعالم العربى[١٦]. كانت مكة أيضًا معزولة، فلم يكن هناك ما يجعل من موقعها الصعب ومن صحارى الجزيرة العربية مطمعًا للفرس أو الروم - القوى العظمى فى ذلك الوقت - فتهيأت لها وللعرب حرية نادرة، واستطاعت قريش أن تصنع اقتصادًا حديثًا بدون سيطرة إمبريالية من الخارج. كان العالم يمر بمكة، ولكن لا يبقى وقتًا كافيًا يتيح له التدخل فى شئونها. استطاع العرب بناء وتطوير معتقداتهم، وكذلك أن يستفيدوا من معارف وخبرات جيرانهم، بالطريقة التى يختارونها. لم يضغط عليهم أحد لاتباع دين أو نظام غريب عليهم، وزكت الدائرة المغلقة لحجهم ولتجارتهم، روح الاكتفاء الذاتى الاستغنائى والتى أصبحت علامة فى ثقافتهم.

أفاد الانفصال المكى عن الفرس والروم اقتصاد مكة فى سلامته من الأضرار التى تصيب تلك القوتين، بل استطاعت قريش فى واقع الأمر الاستفادة من المصائب التى ألمت بهما.

ففى سنة ميلاد النبى (ﷺ) (٥٤ ق. هـ. / ٥٧٠م) أنهكت سلسلة من الحروب كلاً من فارس وبيزنطة، وكانت الشام والعراق ميدانًا لذلك، فتوقف الكثير من مسارات التجارة خلالهما، وأمسكت مكة بزمام التجارة بين الشمال والجنوب[١٧]، وازدادت سلطة قريش، ولكن رأى البعض أن قريشًا تدفع ثمنًا باهظًا لنجاحها. ومع اقتراب القرن السادس من نهايته، دخلت قريش فى أزمة مستحكمة أخلاقيًا وروحيًا.

مزق اقتصاد السوق روح المجتمع القديمة، وحل محلها التنافس عديم الرحمة، والطمع والفردية والأنانية. تنازعت وتحاسدت العائلات على الثروة والجاه، وأهمل أغنياء القبيلة عشائرها قليلة الحظ والوجد، ليراكموا ثرواتهم الخاصة، ولم يكتفوا بذلك، بل جاروا على حقوق اليتامى والأرامل.

انتشى الأغنياء بأحوالهم الجديدة، ورأوا أنها أنقذتهم من بؤس البداوة وعوزها، ولكن أولئك الذين تخلفوا فى السباق المحموم أحسوا بالضياع.

لم تتوافق روح المروءة مع قوى السوق، التى هَمّشت الكثيرين عن المجتمع، ولم تظهر قيم جديدة توازن الاختلالات الجديدة للمجتمع، وأخبرتهم روح الجماعة الباقية فيهم أن الفردية الجديدة سوف تدمر القبيلة.

ولد محمد (ﷺ) فى عشيرة بنى هاشم، واحدة من أوسط عائلات قريش. كان جده الأكبر أول من تاجر لحسابه مع الشام واليمن، وكان لبنى هاشم شرف سقاية الحجاج، ولكن أصابت هاشمًا ضائقة مالية. كذلك مات أبوه عبد الله قبل ولادته، وكانت أمه أمينة فى شدة حتى أن المرضعة التى أخذت محمدًا (ﷺ) كانت من أفقر قبائل الجزيرة العربية. عاش محمد (ﷺ) عند حليمة السعدية ست سنوات من الحياة البدوية فى أخشن صورها. وبعد عودته إلى مكة بسنة، ماتت أمه، مما ترك فيه حزنًا مضاعفًا واهتمامًا كبيرًا باليتامى، كما سنرى.

عاش محمد (ﷺ) مع جده عبد المطلب، الذى أحبه وقربه إليه، وكان يأخذه معه إلى الكعبة وسط أعمامه، ويجلسه بجواره ويربت على ظهره بحب، ولكن مات عبدالمطلب ومحمد (ﷺ) ما زال فى الثامنة ولم يرث شيئًا. أخذه عمه أبوطالب، كبير بنى هاشم، وذو المكانة الرفيعة فى مكة، برغم أن أعماله التجارية كانت فى

هبوط. أحب أبوطالب محمدًا (ﷺ) حبًا كبيرًا، كذلك أحبه أعمامه، فدربه عمه حمزة، أصغرهم، على فنون الرمى والقتال بالسيف، بينما هيأ له عمه العباس، وهو رجل مال وتجارة، أن يقود إحدى القوافل التجارية إلى الشام(*).

كان محمد (ﷺ) الشاب محبوبًا فى مكة، كان وسيمًا متناسق الجسد متوسط القامة، وكانت ابتسامته ساحرة، كما ذكرت كل المصادر. كان حاسمًا مخلصًا فى عمله، ويلتفت بكامله لكل من يكلمه، ولا يسحب يده من المصافحة حتى يسحبها الآخر. وثق الناس فيه حتى سموه الأمين، ولكن يتمه أثر عليه. أراد الزواج من بنت عمه فاختة، ولكن رفض عمه أبوطالب ذلك برفق مشيرًا لأنه لن يستطيع إعالتها.

وعندما بلغ محمد (ﷺ) الخامسة والعشرين، تغير حظه، فقد سألته خديجة بنت خويلد، وهى قريبة له من بعد، أن يتجر لها فى قافلة إلى الشام. كانت عشيرتها - بنو أسد - أكثر نفوذًا من بنى هاشم، وهى تاجرة ناضجة ثرية من بعد وفاة زوجها. هيأت الحياة الحضرية فى مكة لنساء الصفوة فرص النجاح، فى وقت لم تكن هناك أى قيمة لنساء الطبقات الفقيرة.

نجح محمد (ﷺ) فى تجارته بطريقة أعجبت خديجة لدرجة أنها طلبت الزواج منه. لقد أرادت زوجًا جديدًا، وكان محمد (ﷺ) قريبها اختيارًا مناسبًا:

> قال ابن إسحاق: «فقالت له - فيما يزعمون - يا بن عم، إنى قد رغبت فيك لقرابتك منى، وشرفك فى قومك، وسطتك فيهم، وأمانتك عندهم، وحسن خلقك، وصدق حديثك». [السيرة النبوية لابن إسحاق، ط دار الكتب العلمية: ص ١٤٩](١٨).

أثار بعض نقاد محمد (ﷺ) بأن ذلك كان زواج منفعة، ولكن فى الحقيقة، أحب محمد (ﷺ) خديجة ولم يتخذ زوجة أخرى شابة معها، مع أن ذلك كان مقبولاً فى أعراف العرب.

> قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامته». [السيرة النبوية: ص ١٤٩](١٩).

(*) لم نجد فى المصادر العربية أن حمزة كان يدرب النبى ﷺ على فنون الرمى والقتال بالسيف، كما أن الذى هيأ له التجارة إلى الشام هو عمه أبو طالب.

لقد كانت أول من اكتشف أصالة محمد (ﷺ)، ولأنه فقد أمه مبكرًا، فلقد أخلص لها العاطفة، واعتمد على نصيحتها ودعمها. وبعد موتها، كانت بعض زوجاته تغرنّ من كثرة حديثه القلبى عنها.

ربما كانت خديجة فى أواخر الثلاثينيات من عمرها عند زواجها بمحمد (ﷺ)، ولقد أنجبت له ستة أبناء على الأقل، القاسم وعبدالله، وقد ماتا فى الطفولة وبناته الأربع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، واللاتى أحبهن محمد (ﷺ) حبًا جارفًا.

لقدكانت أسرة سعيدة، وداوم محمد (ﷺ) بإصرار على جعل نسبة من دخل الأسرة لصالح الفقراء، كذلك ألحق صبيين بأسرته. فقد أهدته خديجة يوم زفافهما عبدًا صغيرًا اسمه زيد بن حارثة، من إحدى قبائل الشمال. وقد أحب زيد محمدًا (ﷺ) حتى أنه عندما قدم أبواه بمال لفدائه، توسل زيد لمحمد (ﷺ) أن يبقيه معه وألا يطلقه حرًا لأبويه، وهنا أعطاه محمد (ﷺ) حريته، وتبناه. كذلك أضاف محمد (ﷺ) لعائلته ابن عمه على بن أبى طالب ذى الخمس سنوات، الذى كان أبوه يمر بأزمة مالية، وقربه إليه كما لو كان ابنه.

نحن نعرف القليل عن تلك السنوات الأولى، ولكن يمكننا أن نستنتج من السيرة اللاحقة، أن محمدًا (ﷺ) قد أدرك الخلل الذى أصاب مكة، خاصة فى أجيالها الجديدة، فقد أصبحت التفرقة واضحة بين الأغنياء والفقراء. عاش الأوائل حول الكعبة، وعاش الباقون فى أطراف مكة البعيدة، وتخلى أهل مكة عن المروءة والكرم، وانقلبوا بخلاء تحت زعم مهارة التجارة والاقتصاد. وأصبح بعضهم لا يؤمن بالقدر، بعد أن نجح فى تغيير حظه، بل وصل ببعضهم التفكير فى أن الثراء سيجلب لهم نوعًا من الخلود.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ [سورة الهمزة: ١ ـ ٣] [٢٠].

واتبع الآخرون ملذاتهم وأهواءهم، واتخذوها آلهة لهم:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ [سورة الأنعام: ٧٠].

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾ [سورة الأعراف: ٥١]، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣)﴾ [سورة الفرقان: ٤٣]، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾ [سورة: الجاثية: ٢٣][٢١].

تزايد إدراك محمد (ﷺ) بأن قريشًا تخلت عن أفضل ما فى المروءة واستبقت أسوأ صورها، من طيش وتكبر، إلى إحساس متضخم بالذات، مما يدمر أخلاقيات المجتمع ويؤدى به إلى الهلاك. اعتقد بوجوب إجراء إصلاح اجتماعى مبنى على حل أخلاقى وروحى جديد، وإلا فلن يؤتى ثماره. ربما أدرك فى أعماقه بأن له موهبة استثنائية، ولكن ما عساه أن يفعل؟ لن يأخذه أحد على محمل الجد؛ لأنه رغم زواجه من خديجة، لم تكن له وجاهة اجتماعية فى مكة.

كان هناك قلق واضطراب روحى واسع. لقد طور العرب الذين استقروا فى المدن والمجتمعات الزراعية فى الحجاز رؤية دينية جديدة، وصاروا أكثر اهتمام بالآلهة من البدو، ولكن آلهتهم البدائية كانت عديمة الجذور فى الجزيرة العربية. رويت قصص أسطورية قليلة جدًا عن آلهة متنوعة. كان الله أهم إله، وكان ينظر إليه أيضًا على أنه إله الكعبة، ولكن كان ينظر إليه أيضًا على أنه بعيد عن العالم وقليل التأثير على الناس فى حياتهم اليومية. ومثله مثل بقية الآلهة العليا، أو آلهة السماء المعروفة فى الأديان القديمة. لم يطور الله لهم عبادة متكاملة، ولم يصنعوا له تماثيل[٢٢]. يعرف كل الناس أن الله خلق العالم، وأنه يصنع الحياة فى الأرحام، وأنه يسقط الأمطار، ولكن ظلت تلك المعتقدات مجردة. صلى العرب لله فى الأزمات، ولكن نسوه كلية بعد انتهاء الخطر.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ

الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ [سورة يونس: ٢٢ ـ ٢٤] (٢٣).

فى الحقيقة، بدا الله بذلك كأب غير مسئول، غائب، ترك العالم بعد أن خلقه(٢٤)

عبدت قريش آلهة أخرى أيضًا. كان هناك الإله هبل، وله تمثال كبير من الصخور المائلة للحمرة داخل الكعبة(٢٥)، وكانت هناك ثلاثة آلهة: اللات، والعزى، ومناة، وكانت تسمى بنات الله، وكانت مشهورة تمامًا فى المجتمعات المستقرة، وكانت تماثيلها الكبيرة فى الطائف ونخلة وقديد تقارب قداسة الحرم المكى؛ حيث نصب مناة على ساحل البحر من ناحية المشلل مما يلى قديدًا، بينما كانت اللات فى ثقيف بالطائف، أما العزى فكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراضًا على يمين الصاعد إلى العراق من مكة. وبرغم أنها كانت أقل مرتبة من الله، فقد كانت تسمى صاحبات أو شريكات، وكانت تشبه بالغرانيق الجميلة التى تطير أعلى من أى طيور أخرى. وبرغم أن تلك الآلهة لم يكن لها أضرحة فى مكة، فقد أحبتها قريش، وتوسلت إليها للتوسط بينها وبين الله الذى لا يمكن الوصول إليه، وكانوا ينشدون أثناء طوافهم بالكعبة «اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنها الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى».

قال ابن الكلبى: «كانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى». [الأصنام لابن الكلبى: ص ١٨](٢٦).

كانت عبادة الأصنام حماسة دينية حديثة لدى العرب، جلبها من الشام أحد المكيين الأوائل، الذى اعتقد أن بمقدورها جلب الأمطار، ولكن ليس لدينا أى فكرة عن سبب اعتقادهم بأن الآلهة الثلاثة: اللات والعزى ومناة، هن بنات الله، خاصة مع اعتبار العرب ميلاد الإناث من سوء الطالع، حتى أنهم كثيرًا ما كانوا يقتلونهن. لم تعط آلهة العرب أى هداية أخلاقية لهم، ومع ذلك، رأى كثير من العرب فى طقوس العبادة ما يكفى، ولكن وجد بعض القرشيين أن تلك الأوثان الحجرية رموز غير كافية للمقدس(٢٧).

ولكن ما هو البديل الذى كان مطروحًا؟

عرف العرب الديانتين التوحيديتين: اليهودية والمسيحية. فربما عاش اليهود فى الجزيرة العربية لمدة قد تزيد على الألف سنة بعد أن هاجروا إليها من بعد الأسر البابلى والغزو الرومانى لفلسطين. كان اليهود أول من استقر فى يثرب وخيبر فى الشمال للزراعة، كذلك كان هناك تجار يهود فى المدن، وبدو رحل من اليهود. لقد حافظ اليهود على ديانتهم، وشكلوا قبائلهم، ولكنهم امتزجوا مع العرب بالزواج المختلط حتى صاروا منهم، فاتخذوا أسماءً عربية، ونظموا أنفسهم على الطريقة العربية حتى أصبح من الصعب التميز بينهم وبين العرب.

تحول بعض العرب إلى المسيحية، فصارت هناك بعض المجتمعات المسيحية فى اليمن، وعلى حدود الدولة البيزنطية فى الشام. قابل التجار العرب رهبانًا ونساكًا مسيحيين فى رحلاتهم، وعرفوا منهم قصص المسيح، ومفهوم الجنة والحساب فى يوم القيامة، وسموا اليهود والمسيحيين أهل الكتاب، وأعجبتهم تلك الفكرة وتمنوا لو كان لهم كتاب بالعربية.

فى ذلك الوقت، لم يكن العرب يرون اليهودية أو المسيحية كديانة حصرية مختلفة بشكل كبير عن دينهم. وفى الواقع، أشارت كلمة «يهودى» أو «مسيحى» إلى انتماء قبلى أكثر مما أشارت إلى اتجاه دينى[٢٨]. كانت اليهودية والمسيحية داخل السعة الروحية، ومتوافقتين تمامًا مع الروحانية العربية. ولأنه لم تكن هناك أى قوى إمبراطورية تسعى لفرض نظامها الدينى على العرب، فقد تمتعوا بحرية تعريب ما يحتاجونه من تقاليد اليهودية والمسيحية. اعتقدوا أن الله هو نفسه الإله الذى يعبده اليهود والمسيحيون، ولذلك كان المسيحيون العرب يحجون إلى الكعبة، مع الوثنيين العرب، وكان يُقال إن آدم بنى الكعبة بعد خروجه من الجنة، وإن نوحًا أعاد بناءها بعد الطوفان. كذلك عرفت قريش أن الكتاب المقدس يقول عنهم إنهم أبناء إسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم، وإن الله أمر إبراهيم أن يترك هاجر وابنها إسماعيل فى الصحراء، مع وعد بأن يصبح أولاد إسماعيل أمة عظيمة. وبعد ذلك، زار إبراهيم ابنه إسماعيل، وأعاد اكتشاف مكان الكعبة، ثم قام بإعادة بنائها، وسن مراسم الحج.

«ورأت سارة أن ابن هاجر المصرية الذى أنجبته لإبراهيم يسخر من ابنها إسحاق، فقالت لإبراهيم: «اطرد هذه الجارية وابنها، فإن ابن الجارية لن يرث مع ابنى إسحاق» فقبح هذا القول فى نفس إبراهيم من أجل ابنه. فقال الله له: «لا يسوء فى نفسك أمر الصبى أو أمر جاريتك، واسمع لكلام سارة فى كل ما تشير به عليك لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وسأقيم من ابن الجارية أمة أيضًا لأنه من ذريتك». [سفر التكوين-٢١: ٩-١٣][٢٩](*).

علم الجميع أن العرب واليهود عشيرة واحدة. وكما بين المؤرخ اليهودى يوسيفوس (٣٧-١٠٠م تقريبًا)، كان العرب يختتنون فى سن الثالثة عشرة؛ لأن جدهم الأكبر إسماعيل، الذى أنجبه إبراهيم من خليلته هاجر، اختتن فى ذلك السن[٣٠]. لم يشعر العرب بضرورة التحول إلى اليهودية أو المسيحية؛ لأنهم اعتقدوا أنهم كلهم أعضاء فى الديانة الإبراهيمية، وفى الواقع، كانت فكرة التحول من إيمان إلى آخر غريبة على قريش، والتى كانت رؤيتها للدين تعددية[٣١]. كانت كل قبيلة تحج إلى مكة لعبادة إلهها الخاص، الذى يقف فى الحرم مع الآلهة الأخرى فى بيت الله. لم يفهم العرب فكرة أنظمة الإيمان المغلقة على أتباعها، ولم يجدوا تعارضًا بين التوحيد وتعدد الآلهة. لقد نظروا إلى الله فى الكعبة محاطًا بحلقة من الآلهة كرب لهم، بالطريقة نفسها التى رأى بها كتاب العهد القديم من الكتاب المقدس يهوه كإله أعلى من بقية الآلهة.

«قد عرفت أن الرب عظيم، وأن سيدنا أسمى من جميع الآلهة.» [سفر المزامير-المزمور ١٣٥: ٥][٣٢].

ولكن صار بعض عرب الحضر غير راضين بالتعددية الوثنية، وحاولوا ابتداع توحيد عربى أصلى[٣٣]، وقبيل الهبوط الأول للوحى على محمد (ﷺ)، كانوا قد تخلوا عن عبادة أوثان الكعبة، فقال بعضهم لبعض:

---

(*) طبقًا للموسوعة البريطانية الموجزة «Britannica Concise Encyclopedia»، هاجر العرب من جنوب الجزيرة العربية حوالى ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد إلى شمال الجزيرة العربية، وبلاد ما بين النهرين دجلة والفرات، أى العراق الآن، والساحل الشرقى للبحر المتوسط، ودلتا النيل، فكان أصل نبى الله إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة عربى. ص ١٧١٩ طبعة ٢٠٠٦م، كذلك جدير بالذكر أن نبى الله يعقوب عليه السلام الذى أصبح اسمه إسرائيل، وتعنى الكلمة: مجاهد الله، كان له أربع زوجات: ابنتا خاله، وجاريتاهما، ومن هؤلاء الزوجات الأربع جاء بنو إسرائيل.

روى ابن إسحاق قولهم: «تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! يا قوم التمسوا لأنفسكم «دينًا» فإنكم والله ما أنتم على شيء».

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم». [ السيرة النبوية: ص ١٧١ ][٣٤].

لم يكن الباحثون عن الحنيفية طائفة منظمة، فقط اجتمعوا على إزدراء عبادة الأوثان الحجرية، واعتقدوا أن الله هو الإله الوحيد، ولكن لم تتطابق أفكارهم فى أكثر من ذلك. توقع بعضهم ظهور نبى عربى برسالة إلهية لإعادة إحياء ديانة إبراهيم الأصلية، واعتقد آخرون أن ذلك ليس ضروريًا، وأنه بإمكان الناس الرجوع إلى الحنيفية بمبادرات شخصية منهم، وبشر آخرون بقيام الأموات ليوم الحساب الأخير، كذلك كان منهم من اعتنق المسيحية أو اليهودية، كحل مؤقت لحين إعادة تأسيس دين إبراهيم.

كان للأحناف تأثير ضعيف على أقرانهم؛ لأنهم كانوا معنيين بالدرجة الأولى بخلاصهم الشخصى، وكانت عقيدتهم سلبية أكثر مما كانت إيجابية، فهم كانوا يعرفون ما يجب عليهم ألا يفعلوه فى العبادة، ولكنهم لم يكونوا يعرفون ما يجب عليهم أن يفعلوه، ولذلك بدلاً من أن يبتدعوا شيئًا جديدًا، انسحبوا من التيار الرئيسى، ولم تكن لديهم رغبة لإصلاح الحياة الاجتماعية أو الأخلاقية فى الجزيرة العربية. وفى الواقع، الأصل اللغوى العربى للحنيفية هو حنف، أى مال عن أو انحرف عن، والمقصود عن عبادة الأوثان.

ولكن كانت الحركة دليلاً على القلق الروحى لدى العرب فى بداية القرن السابع الميلادى، ونحن نعلم أن محمدًا (ﷺ) كان على صلة بثلاثة من أبرز أحناف مكة: عبيد الله بن جحش ابن عمته، وورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وأصبح الاثنان مسيحيين، وزيد بن عمرو بن نفيل، الذى هاجم الوثنية فى مكة بعنف حتى طرده المكيون، والذى أصبح بعد ذلك من أقرب الصحابة لمحمد (ﷺ). ويبدو أن محمدًا (ﷺ) دخل دوائر الأحناف، وشارك زيدًا تطلعه للهداية الربانية.

قال ابن إسحاق: «كان زيد بن عمرو بن نفيل يقول: يا معشر قريش، والذى نفس زيد بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى. ثم يقول: «اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكنى لا أعلمه. ثم يسجد على راحته». [السيرة النبوية: ص ١٧٣][٣٥].

كان محمد (ﷺ) يبحث عن حل جديد، وكان لعدة سنوات يعتزل الناس فى غار حراء فى شهر رمضان، يوزع الصدقات على الفقراء الذين يزورونه، ويتفرغ للتأمل والتنسك[٣٦]. نعلم القليل عن تلك الممارسة، والتى تعتقد بعض المصادر أن جد محمد (ﷺ) هو الذى ابتدعها، والتى يبدو أنها جمعت بين الاهتمام بالمجتمع، مع طقوس العبادة، والتى قد تكون شملت السجود لله[٣٧]، والطواف حول الكعبة. فى تلك الفترة، بدأ محمد (ﷺ) يرى فى منامه أحلامًا تشع بالآمال والوعود.

روى ابن إسحاق عن عائشة: «إن أول ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله (ﷺ) رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح. قالت: وحبب الله ـ تعالى ـ إليه الخلوة، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده». [السيرة النبوية: ص ١٧٩][٣٨].

وحوالى عام (١٢ ق. هـ/ ٦١٠م)، وهو معتكف فى غار حراء، تعرض لهجوم مباغت مذهل. الكلمات التى أعتصرت، وكأنها من أعماق روحه، أصابت جذر مشكلة مكة:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ [سورة العلق: ١ ـ ١٩].

مثلت تلك الكلمات امتدادًا لاعتقاد قريش أن الله خلق كل شخص منها، وكشفت وهم مروءة الاستغناء، وأظهرت الاعتماد الكلى للبشر على الله.

أخيرًا أصر الله على أنه ليس إلهًا بعيدًا غائبًا، بل حاضرًا لهداية مخلوقاته، ويجب عليهم الاقتراب منه، ولكن بدلاً من اقتراب بروح استغناء المروءة، عليهم السجود له ﴿واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾[٣٩].

هكذا أمر الله، سجود تبغضه عجرفة قريش. منذ البداية، تعارضت ديانة محمد (ﷺ) تمامًا مع بعض المبادئ الأساسية لمروءة قريش.

بعد لقائه الأول مع الوحى، وعندما تمالك محمد (ﷺ) نفسه، سرعان ما تملكه الرعب من التفكير فى أنه بعد كل جهاده الروحى يتلبسه جنى، حتى أنه لم يعد يريد الحياة. وفى غمرة اليأس، خرج مسرعًا من الكهف، ليرتقى قمة يلقى بنفسه منها للموت، ولكنه شاهد رؤية أخرى، كائنًا ساد الأفق ومحملقًا فيه!... قال القرآن عن ذلك:

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨﴾ [سورة النجم: ٥ ـ ٩][٤٠].

قال ابن إسحاق: قال رسول الله (ﷺ): «فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. قال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء، قال: فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فمازلت واقفًا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك، ثم انصرف عنى».
[السيرة النبوية: ص ١٨١][٤١].

لقد كان روح الوحى، والذى سماه محمد (ﷺ) فيما بعد جبريل، ولكنه لم يكن ملاكًا جميلاً كما تصوره الطبيعة البشرية، وإنما حضور متسام عن إدراك البشر الأرضى.

هبط محمد (ﷺ) من الجبل مرتاعًا محتارًا، متعثرًا فى طريقه لخديجة، وعلى عتبة منزله، كان يقول مرتجفًا «زملونى زملونى!»، وألقى بنفسه فى حضنها. لفته

خديجة بالثياب واحتضنته حتى ذهب الروع عنه. لم يساورها أدنى شك فى الوحى. قالت فى إصرار: يا بن عم، أثبت وأبشر، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان.

جاء فى صحيح البخارى: «يا بن عم، أثبت، وأبشر، فوالله إنه لملك، وما هذا شيطان. فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف وتعين على النوائب». [البخارى: باب بدء الوحى، ح رقم ٣][٤٢].

ربما كان محمد (ﷺ) وخديجة قد ناقشا فيما بينهما فهم قريش المتدهور للطبيعة الحقيقية للدين التى تسمو على أداء الطقوس، والتى تتطلب الحميمية والجهاد الأخلاقى المستمر.

ولتطمئن محمدًا (ﷺ)، استشارت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل الذى درس نصوص أهل الكتاب، والذى يستطيع نصحهما بخبرته. تهلل ورقة قائلاً بابتهاج:

«قدوس قدوس، والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتينى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له: فليثبت». [السيرة النبوية: ص ١٨٢][٤٣].

وتوجه الرسول (ﷺ) إلى الكعبة للطواف، فلقيه ورقة فقال: يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت. فأخبره، فقال ورقة بن نوفل: ليتنى أكون حيًا حين يخرجك قومك. فقال محمد (ﷺ): أو مخرجى هم؟ قال: نعم، إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عودى، ولئن أدركت يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم أدنى رأسه منه، فقبل يا فوخه (أى رأسه).

انصرف محمد (ﷺ) منزعجًا إلى منزله، إنه لا يتحمل العيش خارج مكة، وهل يعاديه قومه الذين يحبهم؟ أخبره ورقة أنه لا كرامة لنبى فى وطنه.

كانت بداية صعبة، محفوفة بالخوف والقلق والتهديد بالاضطهاد.

ولكن يرى القرآن نزول الروح القدس على محمد (ﷺ) فى غار حراء بصورة أخرى [عن تلك التى جاءت فى الحديث والسنة]، كحدث عجيب، رقيق، فيه سلام وسكينة، مثل حمل مريم بعيسى (عليهما الصلاة والسلام)، فقال:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة مريم: ١٦ ـ ٢٧].

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٩١](٤٤).

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [سورة القدر: ١ ـ ٥](٤٥).

هناك إخفاء متعمد للذكورة والأنوثة فى هذه السورة من القرآن، خاصة فى الضمائر، التى عادة ما تفقد فى الترجمة. وكان السؤال ﴿مَا أَدْرَاكَ﴾ يمهد لتقديم فكرة غريبة لأتباع محمد (ﷺ) الأوائل، موضحة أنهم على وشك دخول عالم يفوق الوصف. هنا طمس محمد (ﷺ) من ذاكرته هول غار حراء، وتصدرت ليلة القدر المركز كامرأة فى انتظار حبيبها. افتتحت ليلة القدر عصراً جديداً للمشاركة بين السماء والأرض، وتحولت الرهبة الأصلية من ملاقاة المقدس إلى سكينة آخر الليل، عندما تتطلع دنياه لانبلاج ضوء النهار.

كان محمد (ﷺ) ليفهم قول المؤرخ الألمانى رودولف أتو، الذى وصف المقدس أنه غموض فاتن ومرعب فى وقت واحد. إنه كان قوة خارقة، ملحة، هائلة، ولكنها تملأ الإنسان بـ «البهجة، والسعادة والشعور بالتناغم المتزايد والعلاقات الحميمة»(٤٦).

لم يكن من السهل وصف الوحى بطريقة بسيطة، وجعلت صعوبة التجربة محمداً (ﷺ) حذراً جداً فى إخبار أحد عنها. تتابعت الرؤى ـ ولا نعرف كم مرة تكررت ـ ولكن بعد ذلك، انقطع الوحى مما سبب حزناً لمحمد (ﷺ).

كان وقت خواء روحى فظيع. هل توهم محمد (ﷺ) كل ذلك؟ هل تسبب فى كل ذلك جنى مؤذ؟ أم وجده الله متلهفاً فتخلى عنه؟ ظلت السماء جافية عن محمد (ﷺ) بقسوة عامين طويلين، ثم بعد ذلك، انقشع الظلام فجأة بنور ساطع يؤكد:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [سورة الضحى: ١ ـ ١١][٤٧].

طمأن الله محمداً (ﷺ) بأنه لم يتخل عن عبيده، وذكّر الرجال والنساء أن يتعلقوا بفضله وكرمه الدائم. على الإنسان الذى تمتع برعاية الله، أن يساعد اليتيم والمحروم. يجب على كل إنسان تعرض للتهميش والجوع والقمع، أن يرفض ـ تحت أى ظروف ـ تحويل ألمه للآخرين.

ثم أبلغ الوحى محمداً (ﷺ) أن الوقت قد حان لإبلاغ هذه الرسالة إلى قريش، ولكن كيف سيكون رد فعلها؟.

***